

## الفصل الرابع والعشرون

### فتح مكة

أثر موقعة مؤتة - نقض قريش عهد الحديبية - استعداد خزاعة النبي على قريش - سفارة أبي سفيان إلى النبي وإخفاقها - تجهيز المسلمين عشرة آلاف يسرون إلى مكة - رجاء محمد أن يفتح أم القرى من غير إراقة الدماء - خروج العباس ومقاتلته لأبي سفيان وأخذه إلى النبي بظاهر مكة - دخول المسلمين فاتحين - المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد - عفو محمد عن خصومه جميعاً - تطهير الكعبة من الأصنام - إسلام أهل مكة.

#### أثر مؤتة واختلافه:

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مؤتة ولوأوهم لخالد بن الوليد. عادوا لا منتصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمة بالإياب. وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، أثراً مختلفاً أشد الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند قريش بمكة - أما الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين وحدوا بهم أن لم يطل القتال بهم، مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتي ألف على قول آخر، في حين كانت عدة المسلمين ثلاثة آلاف. وسواء أكان فرح الروم راجعاً إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة في الدفاع والقوة في الهجوم حتى لقد تحطمت في يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة، أم كان راجعاً إلى مهارته في توزيع الجيش في اليوم الثاني وإحداث ما حدث من الجلبة حتى ظن الروم أن مدداً جاءه من المدينة، فإن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى فعال المسلمين بإعجاب أشد الإعجاب. وكان من ذلك أن أحد زعمانهم (قروة بن عمرو الجذامي، وكان قائداً لفرقة من جيش الروم) ما لبث أن أعلن إسلامه؛ فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة. وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية، بل كان على استعداد أن يرده إلى مركز القيادة الذي كان فيه. لكن قروة أبي وأصر على إبانته وعلى إسلامه فقتل. وكان من ذلك أيضاً أن ازداد الإسلام انتشاراً بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم في ذروته.

#### انتشار الإسلام في شمال شبه الجزيرة:

وزاد في انضمام الناس إلى الدين الجديد اضطراب أحوال الدولة البيزنطية اضطراباً جعل أحد عمال هرقل، وقد كلف أن يدفع للجيش رواتبه، يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في

الحرب: «انسحبوا. فالإمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة. وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه». فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الإمبراطور وعن جنده، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم إلى صدق الحقيقة السامية التي يبشر الناس بها. لذلك دخل في الإسلام هذه الفترة ألوف من سُلَيْمٍ وعلى رأسهم العباس بن مرداس، ومن أشجع وِعَطْفَان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكِب اليهود في خَيْبَر، ومن عَبَس ومن ذُبْيَان ومن فَرَّازَةَ. فكانت وقعة مؤتة بذلك سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام. وفي ازدياد الإسلام عزة وقوة وَمَنَعَةٌ.

لكن أثرها في نفوس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر؛ فهم ما لبثوا حين رأوا خالداً والجيش معه عاتدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل، أن صاحوا في وجوههم: «يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله». ولقد بلغ من خجل بعض رجال الجيش أن لزم بيته، كيلا يؤذيه صبيان المسلمين وشبَّانهم بتهمة الفرار.

أما أثر مؤتة في نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم، حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزناً. فلتعد الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء. ولتعد الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية. ولتعد قريش حرباً على المسلمين ومن في عهدهم من غير أن تخشى من محمد ﷺ قصاصاً.

#### نقض قريش عهد الحديبية:

وصلح الحديبية كان قد قضى أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعهدهم فليدخل فيه. وكانت خُزَاعَةُ قد دخلت في عهد محمد ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش. وكانت بين خزاعة وبنو بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية وأنحياز كل من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين. فلما كانت مؤتة وخُيَل إلى قريش أن المسلمين قُضِيَ عليهم، خُيَل إلى بني الدَّيْل من بني بكر بن عبد مَنَاة أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة، وحرَّضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عِكْرِمَةُ بن أبي جهل وبعض سادات قريش وأمدوهم بالسلاح.

#### استنصار خزاعة بالنبي ﷺ:

وبينا خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوَتِير إذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم، ففرت خزاعة إلى مكة ولجئوا إلى دار بُدَيْل بن ورقاء، وشكوا إليه نقض قريش ونقض بني بكر عهدهم مع رسول الله ﷺ، وسارع عمرو بن سالم الخزاعي ففدا متوجهاً إلى المدينة حتى وقف بين يدي محمد ﷺ وهو جالس في المسجد بين الناس، وجعل يقص ما حدث ويستنصره. قال رسول الله ﷺ: «نُصِرَتْ

يا عمرو بن سالم». ثم خرج بُدَيْلُ بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة، فأخبروا النبي ﷺ بأصابعهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم. عند ذلك رأى النبي أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكة، وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين في أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء.

مخاوف حكماء قريش:

أما حكماء قريش وذوو الرأي فيها فما لبثوا أن قدروا ما عرضهم له عكرمة ومن معه من الشبان من خطر. فهذا عهد الحديبية قد نقض، وهذا سلطان محمد في شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة. ولئن فكر بعد الذي حدث في أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتعرضن المدينة المقدسة لأشد الخطر. فماذا تراهم يصنعون؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليثبت العقد وليزيد في المدة. ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشرًا، وخرج أبو سفيان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة فلما بلغ من طريقه عسفان. لقيه بُدَيْلُ بن ورقاء وأصحابه، فخاف أن يكون قد جاء محمدًا وأخبره بما حدث، فيزيد ذلك مهمته تعقيدًا. وقد نفى بُدَيْلُ مقابلته محمدًا لكنه عرف من بعر راحلة بُدَيْلُ أنه كان بالمدينة لذلك أتر ألا يكون محمد أول من يلقى، فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبي.

أبو سفيان بالمدينة - إخفاق سفارة أبي سفيان:

ولعلها كانت قد عرفت عواطف النبي ﷺ إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه في أمر مكة. ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعًا. فقد أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبي فطوته أم حبيبة. فلما سأها أبوها: أطوته رغبةً بأبيها عن الفراش، أم رغبةً بالفراش عن أبيها؟ كان جوابها: هو فراش رسول الله - ﷺ - وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه. قال أبو سفيان: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شرا وخرج مُغضِبًا. ثم كلم محمدًا في العهد وإطالة مدته، فلم يرد بشيء. فكلم أبا بكر ليكلم له النبي ﷺ، فأبى. فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الرد وقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله فوالله لو لم أجد إلا الدرَّ لجاهدتكم به. ودخل أبو سفيان على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة، فعرض عليه ما جاء فيه واستشفعه إلى الرسول؛ فأنبأه علي في رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمدًا عن أمر إذا هو اعتزمه. واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس. فقالت: ما يجير أحد على رسول الله. واشتدت الأمور على أبي سفيان فاستنصح عليًا؛ فقال له: والله ما أعلم شيئًا يغني عنك شيئًا. لكنك سيد بني كِنَانَةَ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك؛ وما أظن ذلك مغنيًا، ولكني لا أجد لك غيره. فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس. ثم ركب راحلته وانطلق ذاهبًا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقي من هوان علي يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة يرتجون منه نظرة عطف أو رضا.

عاد أبو سفيان إلى مكة؛ فقصّ على قومه ما لقي بالمدينة وما أجاز بين الناس في المسجد بمشورة عليّ، وأن محمداً لم يجزّ جواره. قال قومه: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. وعادوا فيها بينهم يتشاورون.

### تجهيز المسلمين لفتح مكة:

أما محمد ﷺ فقد رأى ألا يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه. ولئن كان واثقاً من قوته ومن نصر الله إياه، لقد كان يرجو أن يبعث القوم في غيرة منهم، فلا يجردوا له دفعا، فيسلموا من غير أن تراق الدماء. لذلك أمر الناس بالتجهيز فلما تجهزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد؛ ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف عن سيرهم على نيا.

### كتاب ابن أبي بلتعة إلى قريش:

وبينا الجيش على أهبة السير كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بني عبد المطلب تسمى سارة، وجعل لها جعلاً على أن تبلفه قريشاً ليقفوا على ما أعد محمد لهم، وحاطب كان من كبار المسلمين، ولكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف تطفى في بعض الأحيان عليها، وتبوى بها إلى ما لا ترضاه هي لنفسها. وما لبث محمد أن أحيط بالأمر خيراً. فسارع فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام فأدركا سارة فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً. فأنذرها عليّ إن لم تخرج الكتاب ليكشفنها. فلما رأت المرأة الجدم منه قالت: أعرض. فحلت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب منها، فرداها إلى المدينة. ودعا محمد حاطباً يسأله ما حمله على ذلك؟ قال حاطب: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأة ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. قال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله فلاضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. قال رسول الله: وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وكان حاطب من أصحاب بدر. وإذ ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ﴾<sup>(١)</sup>.

### مسيرة جيش المسلمين:

وتحرك جيش المسلمين من المدينة قاصداً مكة ليفتحها، وليضع يده على البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنأ. تحرك هذا الجيش في عدد لا عهد للمدينة به؛ فقد بعثت القبائل، من سليم ومزينة وعظفان وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم في يلب<sup>(٢)</sup> الحديد يسيلون في فسيح الصحراء، حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر

(٢) اليب: الدرع.

(١) سورة المتحة آية ١.

شيء، تحركوا وأعدُّ هؤلاء الألوفا سيرهم، وصاروا كلها تقدموا فيه انضم إليهم من سائر القبائل من زاد عددهم وزاد منعتهم، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله.

خروج بني هاشم إلى النبي ﷺ وإسلامهم:

وسار محمد ﷺ على رأسهم وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يهريق قطرة دم واحدة. وبلغ الجيش مرَّ الظهران<sup>(١)</sup> وقد كملت عدته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر، فهي في جدل مستمر ماذا تصنع لاتقاء عدوة محمد عليها. أما العباس بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ فقد تركهم في جدلهم وخرج مع أهله حتى لقي محمداً بالجحفة<sup>(٢)</sup>. ولعل طائفة من بني هاشم كانت نبياً أو شبه نبأ من خروج النبي، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى. فقد خرج سوى العباس أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب بن عم النبي، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عمته، حتى انصلا بجيش المسلمين بنيق العقاب، واستأذنا على النبي، فرفض أن يأذن لها، وقال لزوجيه أم سلمة حين كلمته في أمرها: لا حاجة لي بها. أما ابن عمي فقد أصابني منه سوء. وأما ابن عمي وصهرى فقد قال بمكة ما قال. وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال: والله ليؤذنين لي أو لأخذن بيد بنتي هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فرق محمد، ثم أذن لها فدخلت عليه فأسلمت.

العباس بن عبدالمطلب - أبو سفيان يستطلع لقريش:

ورأى العباس بن عبدالمطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوته ما راعه وأزعجه. وهو إن كان أسلم فإن ذلك لم يخل قلبه من خشية ما يحل بمكة إذا ذهبها هذا الجيش الذي لا يقبل لقوة في بلاد العرب به. أو ليس قد ترك مكة منذ حين، وله بها من الأهل والمخلان والأصدقاء من لم يقطع الإسلام الذي دان به من وشائجهم! ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله: ماذا يصنع إذا ما طلبت قريش أمانه؟ ولعل ابن أخيه سرَّ بمفاتحة العباس إياه في هذا، ورجا أن يتخذ منه سفيراً يلقي في قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك دمًا، وتظل مكة حراماً كما كانت وكما يجب أن تكون وجلس العباس على بغلة النبي البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك، لعله يجد حظاً أو صاحب لبن أو أى إنسان ذاهباً إلى مكة، يحمله إلى أهلها رسالة بقوة المسلمين وبأس جيوشهم، حتى يخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. وكانت

(١) على أربعة فراسخ من مكة.

(٢) ويذهب بعض كتاب السير إلى أنه لقي الجيش برايح. أما آخرون فيقولون إن العباس ذهب إلى المدينة قبل التصميم على فتح مكة وأسلم وسار مع جيش الفتح. ويدهض كثيرون هذه الرواية ويزعمونها وضعت إرضاء للعباسيين الذين كتبت السيرة أول ما كتبت في عهدهم. ويؤيدون رأيهم هذا بأن العباس، على نصرته لابن أخيه مذ كان بمكة، لم يتابعه على دينه، لأن العباس كان تاجرًا ومرايياً، وكان يخشى ما يجره الإسلام على تجارته من مضرة. ويزيدون أنه لو كان العباس قد أسلم وهاجر، لكان في مقدمة من ذهب إليهم أبو سفيان للتحدث في إطالة مدة عهد الحديبية لقرب عهده بمكة.

قريش قد بدأت، منذ نزل المسلمون مَرَّ الظهران، تشعر بأن خطرًا يقترب منها؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب، وبُدَيْل بن ورقاء، وحكيم بن حزام قريب خديجة، ينتظسون الأخبار، ويستطلعون مبلغ الخطر الذي تحس قلوبها. وإن العباس ليسير على بغلة النبی البيضاء إذ سمع حديثًا بين أبي سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء كذلك يجرى:

أبو سفيان : ما رأيت كالثليلة نيرانًا قطُّ ولا عسكريًا.

بُدَيْل : هذه والله خُزاعة شمَّستها الحرب.

أبو سفيان : خُزاعة أقل وأذلَّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

التقاؤه بالعباس - أبو سفيان في حضرة الرسول ﷺ:

وعرف العباس صوت أبي سفيان، فناداه بكنيته قائلاً: أبا حَنْظَلَةَ! وأجاب أبو سفيان بدوره: أبا الفضل. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان؟ هذا رسول الله في الناس. واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة! قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ فأركبه العباس في عجز البغلة ورد صاحبيه إلى مكة وسار به. والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمرُّ بين عليهما بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب في قلب مكة وأهلها. فلما مرَّت بنار عمر بن الخطاب ورآها عرف أبو سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يُجبره، فأسرع إلى خيمة النبي وطلب إليه أن يضرب عنقه. قال العباس: إني يا رسول الله قد أجرتك. إزاء هذا الموقف في تلك الساعة من الليل، وبعد مناقشة لا تخلوا من جدَّة بين العباس وعمر قال محمد: إِذْهَبْ به يا عباس إلى رَحْلِكَ، فإذا أصبحت فأتني به. فلما كان الصباح، وجيء بأبي سفيان في حضرة النبي وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار، جرى الحوار الآتي:

النبي : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!  
أبو سفيان : بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعدُ.

النبي : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!  
أبو سفيان : بأبي وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمَّا والله هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً!

فتدخل العباس موجهًا القول إلى أبي سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضرب عنقه. ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم. فتوجه العباس بالقول إلى النبي عليه السلام: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال رسول الله: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَنْ أغلق بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن».

## أمصادفة حدث ذلك كله؟

هذه الوقائع واردٌ عليها اتفاق المؤرخين وكتاب السيرة جميعاً إلا أن بعضهم يُسائل: أهي قد حدثت كلها بمحض المصادفة؟ فخرج العباس إلى النبيّ كان قصده منه أن يذهب إلى المدينة فإذا هو يلقي جيوش المسلمين بالجحفة، وخرج بدئيل بن ورقاء مع أبي سفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع، مع أن بديلاً ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصّ على النبيّ ما لقيت خزاعة وعرف من النبيّ أنه ناصرٌها، وخرج أبي سفيان كان جهلاً منه بأن محمداً قد سار لغزو مكة! أم أن شيئاً من الاتّفاق، قليلاً أو كثيراً، كان قد حدث قبل ذلك، وأن هذا الاتّفاق هو الذي أخرج العباس للقاء محمد، وأن هذا الاتّفاق هو الذي جمع بين العباس وأبي سفيان، وأن أبا سفيان كان قد وثق، منذ ذهب إلى المدينة ليمدّ في عهد الحديبية ورجع صفر اليمين، بأن لا سبيل لقريش إلى ردّ محمد، وأيقن أنه إذا مهد للفتح السبيل فستبقى له رياسته في مكة ومقامه الكبير فيها، وأن الذي ربما كان وقع عليه الاتّفاق من ذلك لم يتعدّ محمداً والأشخاص الذين يعينهم الأمر، بدليل ما هم به عمر من قتل أبي سفيان؟ من المغامرة أن نحكم. لكننا نستطيع أن نقرر - مطمئنة نفوسنا - أنه سواء أكانت المصادفة هي التي ساقته ذلك كله أم أن شيئاً من الاتّفاق قد وقع عليه، فالحالان تدلّان على دقة محمد ومهارته في كسب أكبر موقعة في تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء.

## عدة محمد ﷺ لدخول مكة:

لم يمنع إسلام أبي سفيان محمداً ﷺ أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من أهبة وحذر. وإذا كان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، فإن الله لا يؤتي النصر إلا من أعدّ له كلّ عُدته، واحتاط لكل دقيقة وجلييلة قد تقف في سبيله، لذلك أمر أن يجسس أبو سفيان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمرّ به جنود المسلمين فيراها ليحدث قومه بها عن بيته، ولكي لا يكون في إسراعه إليهم خيفة مقاومة أياً كان نوعها. ومرّت القبائل بأبي سفيان، فما راعه منها إلا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فما عرف أبو سفيان أمرهم قال: يا عباس! ما لأحد بهؤلاء قبيل ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبيل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وسار محمد ﷺ في الجيش، حتى إذا انتهى إلى ذي طوى، ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتابته، ووقف على راحلته، وانحنى لله شاكرًا، أن فتح الله عليه مهبط الوحي ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين. وفيها هو كذلك طلب أبو قحافة، ولم يكن قد أسلم كاتبه، إلى

حفيدة له أن تظهر به على أبي قُبَيْس، وكان قد كُفَّ بصره. فلما ارتفعت به الخيل سألها ما ترى؟ قالت: أرى سوادًا مجتمعًا. قال: تلك الخيل. ثم قالت: قد واثقه انتشر السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكة، فأسرعى بي إلى بيتي. ولم يصل إلى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقته قبل بلوغه إياه.

### توزيع الجيش:

شكر محمد الله أن فتح عليه مكة، ولكنه ظلَّ مع ذلك متخذًا جذرَه؛ فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق، وأمرها جميعًا ألا تقاتل وألا تسفك دمًا إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهًا واضطرت إليه اضطرابًا. وجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربي. أما أبو عبيدة بن الجراح فجعله محمد على المهاجرين، وسار وإياهم ليدخلوا مكة من أعلاها في حذاء جبل هند، وفيها هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عبادة يقول: «اليوم يوم الملاحمة، اليوم تستحل الحُرمة...» وفي ذلك من نقض أمر النبي ألا يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه. لذلك رأى النبي حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس، وكان رجلاً ضخماً، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصاباً.

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد؛ فقد كان يقيم في هذا الحَيِّ من أسفل مكة أشدَّ قريش عداوةً لحمد، ومن اشتركوا مع بني بكر في نقض الهدبية بالغارة على خزاعة. هؤلاء لم يرضهم ما نادى به أبو سفيان. بل أعدوا عدتهم للقتال، وأعدَّ آخرون منهم عدتهم للفرار. وقام على رأسهم صفوان وسهيل وعكرمة بن أبي جهل. فلما دخلت فرقة خالد أمطروها نبالهم، لكن خالدًا لم يلبث فرقتهم، ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلَّا طريقهما وانفصلا عنه. أما قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلاً في رواية، وثمانية وعشرين في رواية أخرى. ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن ولَّوا الأدبار، تاركين وراءهم من حرصوهم على المقاومة يصلون بأس خالد ويطش أبطاله معه. وبينما كان محمد على رأس المهاجرين يرقى في مرتفع ينزل منه إلى مكة مطمئن النفس لفتحها في سكينه وسلم بصر بأبم القرى وبما فيها جميعاً، وبصر بتلماع السيوف أسفل المدينة وبطاردة جيش خالد لمن هاجوهم. هنالك أسف وصاح مفضياً يذكر أمره ألا يكون قتال. فلما علم بما كان، ذكر أن الخيرة فيها اختاره الله.

### دخول مكة:

ونزل النبي ﷺ بأعلى مكة قبالة جبل هند، وهنالك ضربت له قبة على مقربة من قبرى أبي طالب وخديجة. وسئل: هل يريد أن يستريح في بيته؟ فأجاب: كلا! فما تركوا لي بكة بيتاً. ودخل إلى القبة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد عزيزاً منتصراً إلى البلد الذي آذاه وعدَّبه وأخرجه

من بين أهله ودياره، وأجال بصره في الوادى وفي الجبال المحيطة به، في هذه الجبال التى كان يأوى إلى شعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتد به قطيعتها، في هذه الجبال، ومن بينها جِراء حيث كان يتحنّث حين نزل عليه الوحى أن: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾<sup>(١)</sup>.

أجال بصره في هذا الجبال وفي الوادى مبعثرة منازل مكة فيه يتوسّطها البيت الحرام، فيبلغ من خضوعه لله أن تفرقت في عينه دعة إسلام وشكر للحق لا حقّ إلا هو، إليه يرجع الأمر كله. وشعر ساعتئذ أن مهمّة القائد قد انتهت، فلم يُقم بالقبة طويلا بل خرج وامطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعا على راحلته يستلم الركن بِمِحْنٍ<sup>(٢)</sup>. في يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة، فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس في المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثم سألمهم ﷺ: « يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟ » قالوا: « خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم! ». قال ﷺ: « فاذهبوا فأنتم الطلقاء ». وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعًا.

### العفو العام:

ما أجل العفو عند المقدرة! ما أعظم هذه النفس التى سمت كل السموم، فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبيل فوق ما يبلغ الإنسان! هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه، ومنّ عذبوه وأصحابه من قبل ذلك. ومنّ قاتلوه في بدر وفي أحد، ومن حصروه في غزوة الخندق، ومن ألّبوا عليه العرب جميعًا، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إربًا إربًا لما ونّوا في ذلك لحظة! هؤلاء قريش في قبضة محمد وتحت قدميه، أمره نافذ في رقابهم، وحياتهم جميعًا معلقة بين شفتيه، وفي سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في رجع البصر! لكن محمدًا ﷺ! لكن النبى ﷺ! لكن رسول الله ﷺ ليس بالرجل الذى يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس. وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوه، فقدر ففعا، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعًا متلاً في البرّ والوفاء بالعهد، وفي سموّ النفس سموًا لا يبلغه أحد.

(١) سورة العلق الآيات من ١ إلى ٥.

(٢) المحجن: عصا منقطة الرأس.

(٣) سورة الحجرات آية ١٣.

### الصور في الكعبة:

ودخل محمد ﷺ الكعبة فرأى جدرانها صُورت عليها الملائكة والنبيون، ورأى إبراهيم مصوراً في يده الأزلام<sup>(١)</sup> يستقسم بها، ورأى بها تمثال حمامة من عيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض، أما صورة إبراهيم فنظر محمد إليها ملياً وقال: قاتلهم الله! جعلوا شيئاً يستقسم بالأزلام! ما شأن إبراهيم والأزلام! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. أما الملائكة الذين صُوروا نساء ذات جمال، فقد أنكر محمد صورهم أن ليست الملائكة ذكوراً ولا إناثاً. ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست. وكانت حول الكعبة الأصنام التي كانت تعبدها قريش من دون الله، قد سُدت إلى جذرها بالرصاص، كما كان هبل في داخل الكعبة؛ فجعل محمد ﷺ يشير إلى هذه الأصنام جميعاً بقضيب في يده وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾<sup>(٢)</sup>.

### تطهير الكعبة من الأصنام:

وكُتبت الأصنام على وجوهها وظهورها، وطُهر البيت الحرام بذلك منها. وأتم محمد بذلك في أول يوم لفتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة، وما حاربته مكة أشد الحرب فيه. أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهد من قريش، ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد أبأؤها، لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

### مخاوف الأنصار وتبديدها:

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله، ورأوا محمداً ﷺ يقوم على الصفا ويدعو، فخيّل إليهم أنه تارك المدينة إلى وطنه الأول رقد فتحه الله عليه، وقال بعضهم لبعض: أترؤن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ ولعلمهم كانوا على حق في مخاوفهم. فهذا رسول الله ﷺ، وبمكة البيت الحرام بيت الله، وبمكة المسجد الحرام. لكن محمداً ما لبث حين أتم دعاءه أن سألمهم ما قالوا؟ فلما عرف بعد تردد منهم مخافتهم قال: «معاذ الله! المَحْيَا مَحْيَاكُمْ والمَمَات مَمَاتِكُمْ». فضرب بذلك للناس مثلاً في البرّ بعهد في بيعة العقبة، وفي الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه، براً ووفاء لا يُسيبها وطن ولا أهل ولا تُتسيبها مكة البلد الحرام.

(١) الأزلام (واحد) زلم بفتحين، وبضم ففتح) هي القداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي: افعل ولا تفعل، كان الرجل منهم يضعها في وعاء، فإذا أراد سفراً أو زواجاً أو أمراً مهما أدخل يده في الوعاء بعد إجانتها وتحريكها فأخرج منها زلماً، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كف عما اعتمزم ولم يفعله. والاستقسام بها معرفة قسم الإنسان، أي حظه ونصيبه.

(٢) سورة الإسراء آية ٨١.

ولما أن طُهرت الكعبة من أصنامها، أمر النبي ﷺ بلالاً فأذن فوقها، وصلى الناس بإمامة محمد ﷺ. ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر، مدى أربعة عشر قرناً مضت لا تنقطع، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان، كل يوم خمس مرات من فوق مسجد مكة. ومدى أربعة عشر قرناً مضت من يومئذ يؤدى المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله، متوجهين إلى الله بقلوبهم وعقولهم، مستقبليين هذا البيت الحرام الذى طُهره محمد يوم الفتح من أوثانه وأصنامه.

وأذعنت قريش لما حلُّ بها، واطمأنت لعفو محمد ﷺ عنها، وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله بعبون كلها دهش وإعجاب يمازجها الخوف والحذر. لكن طائفة منها عدتها سبعة عشر رجلاً، كان محمد ﷺ قد استنابها من رحمة وأمر ساعة دخول مكة أن يُقتل رجالها ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، كان قد آثر بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار. ولم يكن قرار محمد ﷺ قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم؛ فهو لم يكن يعرف الحقد، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها، فأحدهم عبد الله بن أبي السرح كان قد أسلم وكان يكتب لمحمد ﷺ الوحى، فارتدَّ مشركاً إلى قريش زاعماً أنه كان يزيف الوحى حين يكتبه. وعبد الله بن خطل كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتدَّ مشركاً وأمر جاريته فرَّتتى وصاحبته فكانتا تغيبان بهجاء محمد، فأمر بقتلها معه. وعكرمة بن أبي جهل وكان من أشدَّ الناس لئداً فى خصومة محمد ﷺ والمسلمين خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها.

العفو عن أمر النبي ﷺ بقتلهم خلا أربعة قتلوا فى جرائمهم:

أمر محمد ﷺ بعد دخول مكة ألا يُسْفَكَ بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة. لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرَّ منهم من فرَّ. فلما استقر الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا، طمع بعض أصحابه فى أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقتلوا. فقام عثمان بن عفان، وكان أخا ابن أبي السرح للرضاعة، حتى أتى به النبي فاستأمن له. فصمت محمد طويلاً، ثم قال: نعم، وأمته. وأسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبي جهل الذى فرَّ إلى اليمن واستأمنت له محمداً ﷺ فأمنته، فخرجت فى طلبه وجاءت به. وعفا محمد ﷺ كذلك عن صفوان بن أمية وكان قد صحب عكرمة فى فراره إلى ناحية البحر يستقلَّنه إلى اليمن، فجئى بها والسفينة التى تحملها على أهبة إقلاعها. وعفا محمد ﷺ كذلك عن هند زوج أبي سفيان التى مضت كيد حمزة عم الرسول بعد استشهادها فى أحد، كما عفا عن أكثر من أمر بقتلهم. ولم يقتل منهم إلا أربعة، منهم الحويرث الذى أغرى بزيب بنت النبي حين رجوعها من مكة إلى المدينة، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرَّا راجعين إلى مكة مرتدِّين إلى الشرك، وإحدى قيتى ابن خطل اللتين كانتا تؤذيان النبي بغنائهما، وفرَّت الأخرى، ثم استؤمن لها.

### تحريم مكة على الناس جميعاً:

وفي غداة يوم الفتح عثرت خُزاعة على رجل من هُذَيل وهو مشرك فقتلوه فغضب النبيّ وقام في الناس خطيباً فقال: «أيها الناس، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحلّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا أو يعصده<sup>(١)</sup>. فيها شجرًا، لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خُزاعة. ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع. لقد قتلتهم قتيلاً لأدينته. فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النَّظَرَيْنِ: إن شاءوا فدمُ قاتله، وإن شاءوا فعقله»<sup>(٢)</sup>. ثم ودّى بعد ذلك الرجل الذي قتلت خُزاعة، وبهذا الخطاب وبتصرفه الذي زاد على السناحة والعفو أمس، كسب محمد ﷺ قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدرون، فأقبلوا على الإسلام، ونادى مناد فيهم: «مَنْ كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره صنماً إلا حطمه». ثم بعث جماعة من خُزاعة ليُصلحوا من العمد المحيطة بالبلد الحرام، مما دلّ أهل مكة على ما لها في نفسه من التقديس وما زادهم له حبًّا. فلميا أخبرهم أنهم خير أمةٍ يحبّ، وأنه ما كان ليتركهم أو يعدل بين ناسًا لولا أنهم أخرجوه، بلغ تعلقهم به غاية حدوده. وجاء أبو بكر بأبيه، الذي ارتقى أبا قُبَيْس يوم الزحف، يقوده حتى وقف بين يدي النبيّ. فلما رآه محمد قال: هلاً تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتية فيه! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمسي إليك من أن تمسي إليه أنت. فأجلس النبيّ ﷺ الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له: أسلم. فأسلم وحسن إسلامه. وكذلك أسرت أخلاق النبوة السامية هذا الشعب الذي كان ناثراً على محمد أشدّ الثورة، والذي أصبح اليوم يُجِلّه ويقُدّسه. وكذلك أسلمت قريش رجالاً ونساءً وبايعت.

### خالد بن الوليد في جذية:

وأقام محمد ﷺ بمكة خمسة عشر يوماً ينظّم خلالها شؤون مكة ويفقه أهلها في الدين. وفي هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال، ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء. وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نخلة ليهدم العُزَيّ - وكانت لبني شيبان - فلما هدمها خرج إلى جذية، فلما رآه القوم أخذوا السلاح؛ فطلب إليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا. قال رجل من جذية لقومه: ويلكم يا بني جذية! إنه خالد. والله ما بعد وضع السلاح إلا الإِسار، وما بعد الإِسار إلا ضرب الأعناق. قال له قومه: أتريد أن تسفك دماءنا! إن الناس قد أسلموا

(١) يعصده: يقطع.

(٢) العقل: الدية.

ووضعت الحرب وأمن الناس. وما زالوا به حتى وضع سلاحه. عند ذلك أمر بهم خالد فغُلِّوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر إلى النبي رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ثم بعث إليهم عليّ بن أبي طالب وقال له: اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهليّة تحت قدميك. وخرج عليّ ومعه مال أعطاه النبي إياه. فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء وعما أصيب من الأموال، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه، أعطاهم بقية المال الذي بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم.

وفي الأسبوعين اللذين أقام محمد ﷺ بمكة عفى على كل آثار الوثنيّة فيها. ولم ينتقل إلى الإسلام من مناصب البيت الحرام إلا سدانة الكعبة، أقرّها النبي ﷺ في عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم، ويسقاية الحاج من زمزم جعلها لعمه العباس.

وكذلك آمنت أم القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضاء.